مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْأُولَى)

مِنْ مَادَّةِ

[شَرْحُ الْحَائِيَّةِ

فِي اعْتِقَادِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ]

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

www.menhag-un.com

المصنفات في الاعتقاد

فَلَقَدِ اهْتَمَّ الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ -رَحِمَهُمُ اللهُ- اهْتِمَامًا كَبِيرًا بِبَيَانِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَتَوْضِيحِهَا، وَالدِّفَاعِ عَنْهَا، وَبَيَانِ مَنَاهِجِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْبِدْعَةِ، وَتَفْنِيدِهَا، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا؛ فَهَذَا حَبْرُ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانُهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يُنَاظِرُ الْخَوَارِجَ فِي قَضِيَّةِ التَّحْكِيمِ حَتَّىٰ رَجَعَ مَعَهُ أَلْفَانِ، وَهَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَصُدُّ هَجْمَةً مِنْ هَجْمَاتِ الْمُبْتَدِعَةِ وَهُمُ الْقَدَرِيَّةُ.

رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِالْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ -أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ- فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ.

قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ». الْحَدِيثَ.

وَمِنْ بَعْدِهِمْ أَئِمَّةٌ كُثُرٌ؛ مِنْهُمُ: الْإِمَامُ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَدْ كَانَ شَوْكَةً فِي حُلُوقِ الرَّوَافِضِ.

رَوَىٰ اللَّالَكَائِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: «يَا مَالِكُ! لَوْ أَرَدْتُ أَنْ يُعْطُونِي رِقَابَهُمْ عَبِيدًا، أَوْ أَنْ يَمْلَؤُوا بَيْتِي ذَهَبًا عَلَىٰ أَنْ أَكْذِبَ لَهُمْ عَلَىٰ عَلِيٍّ لَفَعَلُوا، وَلَكِنْ وَاللهِ لَا كَذَبْتُ عَلَيْهِ أَبَدًا».

وَهَكَذَا يَبْعَثُ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي كُلِّ فَتْرَةٍ أَئِمَّةً يَحْفَظُونَ عَلَىٰ النَّاسِ عَقِيدَتَهُمْ، وَيَذُبُّونَ عَنْهُمْ شُبُهَاتِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ مِصْدَاقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**». الْحَدِيثَ.

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ وَغَيْرُهُمْ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ -أَيْضًا-: إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَدْ قَامَ لِلَّهِ لِنُصْرَةِ هَذَا الدِّينِ، وَتَحَمَّلَ الْأَذَىٰ فِي مِحْنَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ حَتَّىٰ رَفَعَ اللهُ ﷻ بِهِ رَايَةَ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ.

وَسَارَ عَلَىٰ دَرْبِهِمُ الْأَئِمَّةُ فِي نُصْرَةِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ، وَرَفْعِ رَايَةِ الْعَقِيدَةِ الصَّافِيَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَرَدَ الْعَقَائِدَ سَرْدًا؛ يُحَدِّدُ مَعَالِمَهَا، وَيُبَيِّنُ أَفْرَادَهَا دُونَ التَّعَرُّضِ لِلْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ كَـ«أُصُولِ السُّنَّةِ» لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَ«شَرْحِ السُّنَّةِ» لِلْبَرْبَهَارِيِّ، وَ«الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِلطَّحَاوِيِّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَسَّمَ الْعَقِيدَةَ إِلَىٰ أَبْوَابٍ، كُلُّ بَابٍ يُمَثِّلُ جُزْئِيَّةً مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ الْعَقَدِيَّةِ مُشْتَمِلًا عَلَىٰ أَدِلَّتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ؛ كَـ«كِتَابِ السُّنَّةِ»: لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَدَ، وَ«كِتَابِ التَّوْحِيدِ»: لِابْنِ خُزَيْمَةَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ الْعَقَائِدَ السَّلَفِيَّةَ مَقْرُونَةً بِأَدِلَّتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ كَـ«عَقِيدَةِ السَّلَفِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ»: لِلصَّابُونِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَ«لُمْعَةِ الِاعْتِقَادِ»: لِابْنِ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَ«الْوَاسِطِيَّةِ»: لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ صَنَّفَ فِي مَسْأَلَةٍ مُفْرَدَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ مِمَّا عَظُمَ فِيهَا الِاخْتِلَافُ كَـ«الرُّؤْيَةِ»، وَ«النُّزُولِ»، وَ«الصِّفَاتِ» لِلدَّارَقُطْنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَـ«الْعُلُوِّ» لِلذَّهَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ تَصَدَّىٰ لِلْمُبْتَدِعَةِ وَالزَّنَادِقَةِ بِالرَّدِّ عَلَىٰ شُبُهَاتِهِمْ وَتَفْنِيدِهَا، كَـ«الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ»: لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَابْنِهِ عَبْدِ اللهِ، وَالدَّارِمِيِّ، وَالْبُخَارِيِّ، وَابْنِ قُتَيْبَةَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

وَمِنْهُمْ مَنْ نَظَمَ الْعَقَائِدَ السَّلَفِيَّةَ شِعْرًا؛ حَتَّى يَسْهُلَ حِفْظُهَا وَاسْتِحْضَارُهَا، كَـ«الْحَائِيَّةِ»: لِأَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي دَاوُدَ -رَحِمَهُمَا اللهُ-، وَكَـ«الشَّافِيَةِ الْكَافِيَةِ فِي الِانْتِصَارِ لِلْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ»: لِابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَـ«الْعَقِيدَةِ السَّفَّارِينِيَّةِ»: لِلسَّفَّارِينِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالْمَتْنُ الَّذِي مَعَنَا -وَهُوَ «الْحَائِيَّةُ»- نَظْمٌ مِنَ النُّظُمِ الْعَقَدِيَّةِ بَيَّنَ فِيهِ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَنْهَجَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِأُسْلُوبٍ سَهْلٍ رَائِقٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ -رَحِمَهُمَا اللهُ-:

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا؛ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ

«تَمَسَّكْ»؛ أَيِ: اعْتَصِمْ.

قَالَ الْفَيْرُوزَ آبَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَسَكَ بِهِ، وَأَمْسَكَ، وَتَمَاسَكَ، وَتَمَسَّكَ، وَاسْتَمْسَكَ، وَمَسَّكَ: احْتَبَسَ وَاعْتَصَمَ بِهِ».

«تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ»: الْحَبْلُ هُوَ الرِّبَاطُ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْحَبْلُ: فَإِنَّهُ السَّبَبُ الَّذِي يُوصَلُ بِهِ إِلَىٰ الْبُغْيَةِ وَالْحَاجَةِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْأَمَانُ حَبْلًا؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ يُوصَلُ بِهِ إِلَىٰ زَوَالِ الْخَوْفِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْجَزَعِ وَالذُّعْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]».

وَقَدْ ذَكَرَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- عِدَّةَ مَعَانٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**بِحَبْلِ ٱللَّهِ**﴾ ذَكَرَهَا الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْهَا: أَنَّهُ الْإِسْلَامُ، وَقِيلَ: الْجَمَاعَةُ، وَقِيلَ: حَبْلُ اللهِ عَهْدُهُ؛ أَيْ: عَهْدُ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَقِيلَ: هُوَ إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ ﷻ، وَقِيلَ: هُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ أَوْلَاهَا وَأَشْمَلُهَا لِكُلِّ مَا سَبَقَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ مَا يُؤَيِّدُهُ، فَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدِهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: كِتَابُ اللهِ ﷻ هُوَ حَبْلُ اللهِ؛ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ**».

فَفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ أَنَّ حَبْلَ اللهِ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

وَرَوَىٰ الدَّارِمِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ**: «إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، يُنَادُونَ: يَا عِبَادَ اللهِ! هَذَا الطَّرِيقُ، فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ فَإِنَّ حَبْلَ اللهِ الْقُرْآنُ».

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ ... وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا؛ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ
وَدِنْ بِكِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ تَنْجُو وَتَرْبَحُ

وَهَذَا تَوْجِيهٌ إِلَىٰ التَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، وَالْهُدَىٰ الَّذِي فِيهِ، وَتَرْكِ الْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ؛ لِأَنَّ التَّمَسُّكَ بِكِتَابِ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالْفَلَاحُ، وَأَنَّ التَّدَيُّنَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِكِتَابِ اللهِ، وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَيُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ هَذَا هُوَ طَرِيقُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ وَالرِّبْحِ، وَهَذَا التَّوْجِيهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢- ١٠٣]، وَقَوْلِهِ ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ». أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ **عِنْدَ قَوْلِهِ** -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ...﴾ [آل عمران ١٠٣]: «قِيلَ: بِحَبْلِ اللهِ؛ أَيْ: بِعَهْدِ اللهِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الَّتِي

بَعْدَهَا: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران ١١٢]؛ أَيْ: بِعَهْدٍ وَذِمَّةٍ».

بَدَأَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ نَظْمَهُ بِهَذَا التَّوْجِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ؛ أَيْ: تَمَسَّكْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ بِحَبْلِ اللهِ الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران ١٠٣]، وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَه، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

فَهَذَا الْبَيْتُ مِنْ نَظْمِ النَّاظِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللهِ، وَحَبْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، وَسُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ تَقُولُ: حَبْلُ اللهِ وَحْيُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ سَوَاءً كَانَ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً.

«تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ»؛ أَيِ: اعْتَصِمْ بِهِ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران ١٠٣].

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ**».

هَذِهِ الثَّلَاثُ -وَالْحَدِيثُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ»- مِنْهَا: الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ يَقِي مِنَ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ، فَلَا يَحْصُلُ الِاخْتِلَافُ وَالِافْتِرَاقُ إِلَّا بِسَبَبِ عَدَمِ التَّمَسُّكِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَافْتِرَاقِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا؛ لِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران ١٠٥].

هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ تَرَكُوا كِتَابَ اللهِ فَتَفَرَّقُوا، وَهَذِهِ نَتِيجَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِكُلِّ مَنْ لَا يَأْخُذُ دِينَهُ وَعَقِيدَتَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَإِنَّ النَّتِيجَةَ الِاخْتِلَافُ وَالتَّفَرُّقُ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٣].

كُلٌّ أَحْدَثَ لَهُ مَذْهَبًا وَمَنْهَجًا يُخَالِفُ بِهِ غَيْرَهُ، فَحَصَلَتْ فِتَنٌ عَظِيمَةٌ، وَوَقَعَتْ شُرُورٌ كَثِيرَةٌ لَا عَاصِمَ مِنْهَا إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا سِيَّمَا فِي الْأَصْلِ وَالْأَسَاسِ، وَهُوَ الْعَقِيدَةُ الَّتِي يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

فَلَا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ وَلَا كَثْرَةُ الْأَمْوَالِ، بَلْ هَذِهِ تَزِيدُ الْقُلُوبَ نُفْرَةً وَتَبَاغُضًا، مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَنْ تُؤَلِّفَ بِهَا بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَقَدْ حَذَّرَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِمَّا وَقَعَتْ فِيهِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ مِنْ تَفَرُّقِهَا بَعْدَمَا جَاءَتْهَا الْبَيِّنَاتُ، فَقَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

لَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ؛ لِأَنَّ اللهَ بَيَّنَ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ تَرَكُوا هَذِهِ الْبَيِّنَةَ فَتَفَرَّقُوا، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

وَهَذَا دُعَاءٌ عَظِيمٌ يَعْصِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ الْمُسْلِمَ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْفِتَنِ وَالشُّرُورِ.

الْمُرَادُ بِحَبْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -كَمَا مَرَّ- فِي أَوْلَىٰ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَفِي أَشْمَلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ هُوَ: كِتَابُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَالْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ يَنْصَحُ الْمُسْلِمَ بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ يَتَّبِعَ هَدْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَنَسْتَفِيدُ مِنْ كَوْنِ النَّاظِمِ رَحِمَهُ اللهُ عَبَّرَ بِهَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ -بِحَبْلِ اللهِ وَاتِّبِعِ الْهُدَىٰ-: أَنَّ الْأَوْلَىٰ بِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَلْتَزِمَ فِي حَدِيثِهِ لَا سِيَّمَا فِي بَابِ الْعَقِيدَةِ بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَسْلَمُ لَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْغَلَطِ، وَأَفْضَلُ فِي اتِّبَاعِ الْمَأْثُورِ مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ.

وَقَدْ ذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي جَامِعِهِ حَدِيثًا مَرْفُوعًا، وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ، قَالَ أَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وَفِي الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ مَقَالٌ، فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ، وَإِنْ كَانَ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ أَوْصَافِ الْقُرْآنِ هُوَ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، الْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، قَالَ: «دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا أُنَاسٌ يَخُوضُونَ فِي أَحَادِيثَ، فَدَخَلْتُ عَلَىٰ عَلِيٍّ فَقُلْتُ: أَلَا تَرَىٰ أَنَّ النَّاسَ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ فِي الْمَسْجِدِ؟!!

فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا؟

قُلْتُ: نَعَمْ!

قَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ».

قُلْتُ: وَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟

قَالَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، هُوَ الَّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، فَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، هُوَ الَّذِي مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ».

الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَالدَّارِمِيُّ، وَقَدْ قَالَ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وَفِي الْحَارِثِ مَقَالٌ»، وَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ كَمَا مَرَّ، وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ، فَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ أَوْصَافِ الْقُرْآنِ فَهُوَ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ.

فَالْمَقْصُودُ: وَيُغْنِي عَنْ هَذَا حَدِيثُ مُسْلِمٍ الَّذِي فِيهِ التَّصْرِيحُ أَنَّ حَبْلَ اللهِ هُوَ الْقُرْآنُ، فَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْمُرَادَ بِحَبْلِ اللهِ هُوَ الْقُرْآنُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِحَبْلِ اللهِ: الْوَحْيُ، وَالْوَحْيُ يَشْمَلُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَالسُّنَّةُ وَحْيٌ كَالْقُرْآنِ، وَهِيَ -أَيْضًا- مُنَزَّلَةٌ كَالْقُرْآنِ؛ أَيْ: مُوحًىٰ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَمَّا كَوْنُ السُّنَّةِ وَحْيًا؛ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، وَأَمَّا كَوْنُهَا مُنَزَّلَةً؛ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]؛ فَالْكِتَابُ هُنَا هُوَ: الْقُرْآنُ،

وَالْحِكْمَةُ: السُّنَّةُ فَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِحَبْلِ اللهِ: الْوَحْيُ، سَوَاءً كَانَ قُرْآنًا أَوْ سُنَّةً، وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ.

«وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ»؛ أَيِ: الْزَمْ طَرِيقَ السُّنَّةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَهِيَ طَرِيقُ النَّجَاةِ، وَسُلَّمُ الْفَلَاحِ، قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي النُّونِيَّةِ:

يَا مَنْ يُرِيدُ نَجَاتَهُ يَوْمَ الْحِسَا ... بِ مِنَ الْجَحِيمِ، وَمُوقَدِ النِّيرَانِ

اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْ ... أَعْمَالِ لَا تَخْرُجْ عَنِ الْقُرْآنِ

وَخُذِ «الصَّحِيحَيْنِ» الَّذَيْنِ هُمَا لِعِقْـ ... ـدِ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ وَاسِطَتَانِ

وَاقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًىٰ ... وَتَعَصُّبٍ وَحَمِيَّةِ الشَّيْطَانِ

وَاجْعَلْهُمَا حَكَمًا، وَلَا تَحْكُمْ عَلَىٰ ... مَا فِيهِمَا أَصْلًا بِقَوْلِ فُلَانِ

فَاسْتَفْتَحَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ الْمَنْظُومَةَ بِالْوَصِيَّةِ بِالْأَخْذِ بِالْقُرْآنِ، وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ؛ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ؛ الْوَصِيَّةُ بِالْأَخْذِ بِالْقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

الْأَمْرُ الثَّانِي: بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَكْفِي عَنِ السُّنَّةِ، فَهُمَا مُتَلَازِمَانِ لَا يُمْكِنُ اسْتِقْلَالُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَتَمَسَّكُ بِكِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَهُوَ لَا يَتَمَسَّكُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِالْقُرْآنِ أَصْلًا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ حَضَّ عَلَىٰ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَذَلِكَ نَبِيُّنَا ﷺ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**»؛ فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ أَثْنَىٰ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَىٰ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ، وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ؛ أَيْ يَعْتَصِمُونَ بِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، وَالَّذِينَ تَرَكُوا زَوَاجِرَهُ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ»، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الزخرف: ٤٣]؛ أَيْ: خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَىٰ قَلْبِكَ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُفْضِي إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُوصِلِ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ، وَاتَّبِعِ السُّنَّةَ، وَاتَّبِعْ هِدَايَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟**﴾ [النور: ٥٤]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَقَدِ اهْتَدَىٰ**».

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَالْهُدَىٰ وَالْهِدَايَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

* هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ.

* وَهِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ.

أَمَّا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ: فَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِاللهِ ﷻ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا نَافِيًا إِيَّاهَا عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ -فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُ؟!!-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

فَالْهِدَايَةُ الَّتِي نَفَاهَا اللهُ -تَعَالَىٰ- عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ هِيَ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ، هِيَ هِدَايَةُ الْقُلُوبِ.

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنٍ آل الشَّيْخِ فِي «فَتْحِ الْمَجِيدِ» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]: «الْمَنْفِيُّ هُنَا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْقَبُولِ؛ فَإِنَّ أَمْرَ ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَحْدَهُ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْهِدَايَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [الشورى: ٥٢]؛ فَإِنَّهَا هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْبَيَانِ؛ فَهُوَ ﷺ الْمُبَيِّنُ عَنِ اللهِ، وَالدَّالُّ عَلَىٰ دِينِهِ وَشَرْعِهِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْهِدَايَةُ الَّتِي نَفَاهَا اللهُ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَالَّتِي أَثْبَتَهَا لَهُ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ، وَلِهَذَا أَتَتْ مُطْلَقَةً؛ لِبَيَانِ

أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ هُوَ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ فَقَطْ، لَا أَنْ يَجْعَلَهُ مُهْتَدِيًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]؛ فَلَمْ يَخْصُصْ -سُبْحَانَهُ- فُلَانًا وَفُلَانًا؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّكَ تَهْدِي هِدَايَةَ الدَّلَالَةِ، فَأَنْتَ تَفْتَحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ النَّاسِ فَقَطْ، وَتُبَيِّنُ لَهُمْ وَتُرْشِدُهُمْ، وَأَمَّا إِدْخَالُ النَّاسِ فِي الْهِدَايَةِ فَهَذَا أَمْرٌ لَيْسَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِنَّمَا هُوَ مِمَّا تَفَرَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ.

فَنَحْنُ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ، وَأَنْ نُرْشِدَ، وَأَنْ نَدْعُوَ، وَأَمَّا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ -أَيْ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهْتَدِي قَلْبُهُ- فَهَذَا إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، وَهَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ».

فَعِنْدَنَا هَاهُنَا أَمْرَانِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُبْطِلِينَ -إِمَّا بِجَهْلٍ، وَإِمَّا بِسُوءِ نِيَّةٍ- يُرِيدُونَ أَنْ يَضْرِبُوا آيَاتِ اللهِ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَهَيْهَاتَ فَهُوَ كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا!!

فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ أَثْبَتَ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْهِدَايَةَ وَنَفَاهَا عَنْهُ، وَهَذَا كَذِبٌ مَحْضٌ، وَإِنَّمَا أَثْبَتَ لِلنَّبِيِّ ﷺ هِدَايَةً لَا الْهِدَايَةَ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ، وَإِنَّمَا أَثْبَتَ لَهُ هِدَايَةً وَنَفَىٰ عَنْهُ هِدَايَةً، وَالْمُثْبَتُ غَيْرُ الْمَنْفِيِّ، فَلَمْ يَتَوَارَدِ النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ عَلَىٰ مَحَلٍّ وَاحِدٍ حَتَّىٰ يُقَالَ: وَقَعَ تَنَاقُضٌ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ! وَإِنَّمَا نَفَىٰ عَنْهُ هِدَايَةً بِاعْتِبَارٍ، وَهِيَ هِدَايَةُ الْقُلُوبِ فَهَذَا إِلَىٰ عَلَّامِ الْغُيُوبِ، وَسِتِّيرِ الْعُيُوبِ لَا يَمْلِكُهُ حَتَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]؛ يَعْنِي: هِدَايَةَ الْقُلُوبِ، وَالْأَرْوَاحِ، وَأَثْبَتَ لَهُ

هِدَايَةً، وَهِيَ ثَابِتَةٌ لَهُ وَلِلْعُلَمَاءِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ، وَهِيَ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالْبَيَانِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، فَأَثْبَتَ الْهِدَايَةَ بِاعْتِبَارٍ، وَنَفَاهَا بِاعْتِبَارٍ آخَرَ، فَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: هُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ ذِلَكَ كَذَلِكَ، وَأَنَّ هِدَايَةَ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ مَبْذُولَةً لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّىٰ وَلَا لِخَلِيلِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ -وَهُوَ مَنْ هُوَ!!- فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ ذَلِكَ اعْتِقَادًا رَاسِخًا وَنَحْنُ نَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِنَّمَا نَأْسَىٰ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا رَفَضُوا هِدَايَةَ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ فَقَدِ اخْتَارُوا الْغِوَايَةَ وَالضَّلَالَ، فَنَأْسَىٰ عَلَيْهِمْ لَا أَنْ نَجِدَ فِي أَنْفُسِنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَنَا، أَوْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِدَايَتِنَا، لَا لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ قَدْ نُفِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَيْفَ بِمِثْلِنَا مِنَ الضُّعَفَاءِ الْمُذْنِبِينَ؟!!

فَعَلَيْنَا أَنْ نَجِدَ الْحُزْنَ فِي الْقُلُوبِ عَلَىٰ مَنْ لَا يَهْتَدِي، فَنَحْزَنَ عَلَيْهِ، وَنَحْزَنَ لِمَا يَقَعُ مِنْهُ؛ لَا أَنَّنَا نَغْضَبُ مِنْ هَذَا الَّذِي أَتَي بِهِ مِنْ رَدِّ الْهِدَايَةِ عَلَىٰ مَنْ دَلَّ عَلَيْهَا وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلِأَنَّ الدَّعْوَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، لَا إِلَىٰ مَا سِوَاهُ، وَلَا مَنْ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ، فَإِذَا مَا أَصَابَنَا حُزْنٌ فَإِنَّمَا هُوَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ صَالِحَهُمْ، وَرَدُّوا الْهِدَايَةَ -هِدَايَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ-.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هِدَايَةِ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

إِذَا عَرَفْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ الْهِدَايَتَيْنِ لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْنَا شَيْءٌ مِنْ نَظْمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِأَنَّكَ رُبَّمَا تَقْرَأُ قَوْلَ رَبِّكَ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فَيَنْصَرِفُ ذِهْنُكَ إِلَىٰ هِدَايَةِ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، تَقُولُ: فَكَيْفَ اسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَقَدْ هُدُوا؟!!

وَأَمَّا الْمَعْنَىٰ فَهُوَ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ دَلَلْنَاهُمْ، وَأَرْشَدْنَاهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ سَبِيلَ الْهِدَايَةِ، وَسَبِيلَ الْغِوَايَةِ، وَرَغَّبْنَاهُمْ فِي الْأَوَّلِ، وَنَفَّرْنَاهُمْ مِنَ الثَّانِي فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ.

وَالنَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَحُثُّ عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُمَا مَصْدَرُ التَّلَقِّي، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالْأَخْذِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]؛ وَالْحِكْمَةُ هَاهُنَا: سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَأَمَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِالرُّجُوعِ عِنْدَ الِاخْتِلَافِ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ؛ أَيْ: إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ ﷻ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يُرَدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فَمَا حَكَمَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَشَهِدَا لَهُ بِالصِّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!! وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾؛ أَيْ: رُدُّوا الْخُصُومَاتِ وَالْجَهَالَاتِ وَالنِّزَاعَاتِ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾.

الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِمَامٌ وَابْنُ إِمَامٍ، إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ، وَابْنُ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّتِهَا، وَهُوَ أَبُو دَاوُدَ صَاحِبُ السُّنَنِ؛ لِذَلِكَ يَصْدُرُ فِيمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِذَلِكَ يَبْدَأُ النَّظْمَ بِقَوْلِهِ:

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ، وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ ... وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ

وَهَذِهِ مِنْ مُمَيِّزَاتِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَنْطَلِقُونَ فِي مُؤَلَّفَاتِهِمُ الْمَنْظُومَةِ وَالْمَنْثُورَةِ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَصَاحِبُ النَّظْمِ يَأْمُرُ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللهِ،

وَاتِّبَاعِ الْهُدَىٰ كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ آيَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ، وَأَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٌ، وَآثَارٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ، وَلِأَنَّ أَمْرًا مُهِمًّا لَا بُدَّ أَنْ نَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّنَا إِذَا لَمْ نَأْخُذْ بِكِتَابِ رَبِّنَا، وَلَمْ نَتَّبِعْ سُنَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ فَمَهْمَا عَمِلْنَا مِنْ عَمَلٍ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْنَا، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

التَّمَسُّكُ وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ لَا يَتِمُّ لِذَكَرٍ وَلَا أُنْثَىٰ حَتَّىٰ يَعْلَمَ دِينَ اللهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ الْمَرْءُ دِينَ اللهِ إِلَّا إِذَا تَعَلَّمَ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ مَهْمَا رَأَىٰ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُتَمَسِّكٌ بِحَبْلِ اللهِ، فَهُوَ فَاقِدُ الصَّوَابِ، فَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْ مُكَلَّفٍ مِنْ عَالَمَيِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَمَلًا إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ شِرْطَانِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الصَّوَابُ.

وَالشَّرْطُ الثَّانِي: الْإِخْلَاصُ.

الصَّوَابُ مَعْنَاهُ: مُتَابَعَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

الشَّرْطُ الثَّانِي: الْإِخْلَاصُ؛ أَيِ: الْإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ، وَهُوَ أَنْ يَبْتَغِيَ الْعَامِلُ مِنْ وَرَاءِ عَمَلِهِ وَجْهَ اللهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فَإِذَا اخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَإِنَّ الْعَمَلَ لَا يُقْبَلُ، الْجَاهِلُ فَاقِدُ الصَّوَابِ فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُهُ حَتَّىٰ يَتَعَلَّمَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَسَّكَ الْجَاهِلُ بِحَبْلِ اللهِ حَتَّىٰ يَكُونَ ذَا عِلْمٍ بِحَبْلِ اللهِ؛ فَالْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعٌ لَهُ؛ لِذَا قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا مُخَاطِبًا نَبِيَّنَا ﷺ -وَأُمَّتُهُ تَبَعٌ لَهُ فِي الْخِطَابِ-: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد ١٩].

فَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَعْلَمَ أَوَّلًا ثُمَّ يَعْمَلَ، فَجَاءَ الْأَمْرُ بِالْعِلْمِ مُقَدَّمًا عَلَىٰ الْعَمَلِ، وَبِهِ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنْ «صَحِيحِهِ»: «بَابٌ: الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ»، وَذَكَرَ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا فِي أَوَّلِ آيَاتٍ أَنْزَلَهَا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَهُ فِيهَا بِالْعِلْمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِأَيِّ شَيْءٍ، أَوَّلُ أَمْرٍ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِ نَبِيِّهِ ﷺ هُوَ هَذَا الْفِعْلُ الْجَمِيلُ «اقْرَأْ» قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْعَمَلِيَّةِ أَوْ الِاعْتِقَادِيَّةِ، بَلْ أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ؛ إِذْ قَالَ لَهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدْرَ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

وَانْطَلَقَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ لِإِنْذَارِ النَّاسِ، وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ الْبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةُ؛ الْبِشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ الْمُتَّبِعِينَ شَرْعَ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ -عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ- بِأَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رِضَا اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَرُؤْيَتُهُ، وَالنِّذَارَةِ لِلْعُصَاةِ وَلِلْكَافِرِينَ الْمُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﷺ مِمَّا فِيهِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ الْمُبَارَكَةُ، أَلَا وَهُوَ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ وَالسُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ عِلْمًا وَعَمَلًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ -كَمَا مَرَّ- فَالْجَمْعُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ هُوَ مَنْهَجُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَمَرَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَسْلُكَ بِنَا سَبِيلَهُمْ فِي أَعْظَمِ سُورَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَأَوْجَبَ قِرَاءَتَهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ صَلَوَاتِنَا فَرَائِضَ وَنَوَافِلَ أَلَا وَهِيَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]؛ حَيْثُ خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦- ٧] الْآيَاتِ.

فُسِّرَ هَذَا الْإِجْمَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، **فَهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ:**

* النَّبِيُّونَ صَفْوَةُ الْخَلْقِ ﷺ.

* وَالصِّدِّيقُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

www.menhajan.com

* وَالشُّهَدَاءُ الَّذِينَ ثَبَتَتْ لَهُمُ الشَّهَادَةُ بِنُصُوصِ الشَّرْعِ مِمَّنْ قُتِلَ فِي مَعَارِكِ الْقِتَالِ مَعَ أَعْدَاءِ اللهِ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، وَمِمَّنْ كُتِبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ وَإِنْ لَمْ يُقْتَلْ فِي الْمَعَارِكِ.

* وَالصَّالِحُونَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَىٰ الْخَاصِّ، وَهُمْ كُلُّ عَبْدٍ صَالِحٍ مِنْ عَالَمَيِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ صَالِحًا إِلَّا إِذَا جَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَأَمَّا مَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ فَقَدْ تَشَبَّهَ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمُ الْيَهُودُ، الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ فِيهِ هُدًىٰ وَنُورٌ مِنْ كُتُبِ اللهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَىٰ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَصُحُفِ مُوسَىٰ، فَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَحَرَّفُوا، وَاسْتَهْزَؤُوا، بَلْ قَتَلُوا الْمُرْسَلِينَ بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا، فَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ، وَمَسَخَ بَعْضَهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وَهَذَا عَذَابٌ أَدْنَىٰ، وَالْعَذَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

إِذَنْ؛ مَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ فَقَدْ تَشَبَّهَ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَهُمُ الْيَهُودُ، وَأَنْتَ تَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ رَكْعَاتِ الصَّلَاةِ أَلَّا يَجْعَلَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَلَا إِلَيْهِمْ بِسَبِيلٍ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْ دُونِ عِلْمٍ بَلْ عَلَىٰ جَهْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَقَدْ تَشَبَّهَ بِالنَّصَارَىٰ الَّذِينَ تَرَكُوا الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ، وَاشْتَغَلُوا بِمَلَذَّاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَاتَّبَعُوا الْهَوَىٰ، وَصَارَتْ عِبَادَتُهُمْ ضَائِعَةً هَبَاءً مَنْثُورًا.

فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ اللهَ بِجَهْلٍ، وَعَبَدَ اللهَ بِغَيْرِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ كَفَرَ بِآخِرِ رَسُولٍ وَأَعْظَمِ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا، وَكَتَبَ اللهُ أَنْ تَكُونَ رِسَالَتُهُ عَامَّةً شَامِلَةً، لَا يَسَعُ أَحَدًا الْخُرُوجُ عَنْهَا أَبَدًا؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَرَحِمَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْقَائِلَ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَىٰ».

وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

أَيْ: هُوَ مِنْهُمْ فِيمَا تَشَبَّهَ بِهِمْ فِيهِ؛ سَوَاءٌ فِي شِرْكٍ، أَوْ فِي بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ، أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، وَأَمَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بِاتِّبَاعِ الْهُدَىٰ؛ لِذَلِكَ قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ.

أَمَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِاتِّبَاعِ الْهُدَىٰ، وَاتِّبَاعِ دِينِ الْحَقِّ.

الْهُدَىٰ: الْعِلْمُ النَّافِعُ.

www.menhag-un.com

دِينُ الْحَقِّ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ طَرِيقُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ -كَمَا مَرَّ-.

لَقَدْ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ الْعِلْمَ إِلَىٰ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: عِلْمٌ مَمْدُوحٌ وَمُثَابٌ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ: وَهُوَ الْعِلْمُ بِشَرْعِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَالْعَمَلُ بِهِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَهَذَا الْعِلْمُ جَاءَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ، وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ حَامِلِيهِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

الْجَوَابُ: لَا يَسْتَوُونَ.

وَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

فَالْعَالِمُ مُبْصِرٌ، وَالْجَاهِلُ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يُبْصِرُ الطَّرِيقَ الْحِسِّيَّ، وَالْجَاهِلُ لَا يُبْصِرُ الطَّرِيقَ الْمَعْنَوِيَّ الَّتِي تُفْضِي بِسَالِكِهَا إِلَىٰ رِضَا اللهِ، وَدَارِ كَرَامَتِهِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: قِسْمٌ مِنَ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ: هُوَ خَيْرٌ فِي ذَاتِهِ، وَمَمْدُوحٌ فِي ذَاتِهِ، وَشَرٌّ عَلَىٰ حَامِلِهِ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِهِ، وَعَلَىٰ هَذَا دَلَّ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا**». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَالْمَفْهُومُ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ يُسْتَعَاذُ بِاللهِ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ شَرٌّ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، وَهُوَ خَيْرٌ فِي ذَاتِهِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: قِسْمٌ مَذْمُومٌ هُوَ وَأَهْلُهُ: وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ؛ كَعِلْمِ السِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ، وَعِلْمِ الشَّعْوَذَةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَالْعِلْمِ الَّذِي ادَّعَاهُ الْمُشْرِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْعُلُومُ دَلَّ عَلَىٰ شَرِّهَا، وَشُؤْمِهَا كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي شَأْنِ السِّحْرِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي عِلْمِ الْكُفَّارِ الَّذِي كَانُوا يَتَطَاوَلُونَ بِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

أَيْ: بِأَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَىٰ حَقٍّ وَصَوَابٍ، وَأَنَّهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ طَرَائِقِهِمْ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فَقَوْلُ النَّاظِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ...» مُنْتَزَعٌ مِنْ قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

إِذِ الْمُرَادُ بِالْهُدَىٰ: الْعِلْمُ النَّافِعُ، **وَدِينُ الْحَقِّ**: الْعَمَلُ الصَّالِحُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، أَقْوَالًا وَأَفْعَالًا.

فَمَصْدَرُ التَّلَقِّي عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، بِهِمَا يَأْخُذُونَ، وَعَنْهُمَا يَصْدُرُونَ، وَعَلَيْهِمَا يُعَوِّلُونَ، وَلَا يَحِيدُونَ عَنْهُمَا قِيدَ أُنْمُلَةٍ كَمَا قَالَ الْأَوْزَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَدُورُ مَعَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَيْثُ دَارَا»، وَلَا يُحْدِثُونَ شَيْئًا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَقَوْلُ النَّاظِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَمَسَّكْ بِكِتَابِ اللهِ، وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ».

«اتَّبِعِ الْهُدَىٰ»: الْزَمْ طَرِيقَ الْهُدَىٰ وَالرَّشَادِ، فِيهِ حَثٌّ عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ، وَإِبْطَالٌ لِقَوْلِ الطَّائِفَةِ الضَّالَّةِ الْمُضِلَّةِ الَّذِينَ يَتَسَمَّوْنَ بِالْقُرْآنِيِّنَ، الَّذِينَ يَقُولُونَ نَحْنُ لَا نَأْخُذُ إِلَّا بِالْقُرْآنِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ لَيْسَ بِآخِذٍ حَتَّىٰ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَ فِي كِتَابِهِ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ بِالْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَا، وَلِذَا لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُسْتَمَسِّكًا بِالْقُرْآنِ إِلَّا إِذَا أَخَذَ بِالسُّنَّةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَخْذِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَعًا.

قَالَ تَعَالَىٰ آمِرًا أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وَقَدِ اسْتَظْهَرَ الْعُلَمَاءُ -وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ الْكَبِيرُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «الرِّسَالَةِ»- أَنَّ الْحِكْمَةَ هَاهُنَا، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ: هِيَ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا وَاضِحٌ؛ ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

آيَاتُ اللهِ مَعْلُومَةٌ، مَا الَّذِي يُتْلَىٰ -أَيْضًا- وَيُذْكَرُ فِي أَبْيَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.. فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ؟!!

سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

«تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ»: فِيهِ تَحْدِيدٌ لِمَصْدَرِ التَّلَقِّي، لَمَّا حَدَّدَهُ حَذَّرَ مِنْ مُخَالَفَتِهِ فَقَالَ: «وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا»، وَهُوَ بِهَذَا السِّيَاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ يُشِيرُ إِلَىٰ أَصْلٍ مُهِمٍّ هُوَ أَنَّ مَنْ تَخَلَّىٰ عَنْ حَبْلِ اللهِ، وَتَخَلَّىٰ عَنِ السُّنَّةِ فَهُوَ آخِذٌ بِسَبِيلِ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ؛ لِذَا عَرَّفَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْبِدْعَةَ بِمَا لَيْسَ بِسُنَّةٍ؛ فَإِنَّهُ مَهْمَا رُفِعَتْ سُنَّةٌ وُضِعَتْ بِدْعَةٌ.

فَالنَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا»: بِتَرْكِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ بِهَذَا يُشِيرُ إِلَىٰ الْهُوَّةِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي سَقَطَ فِيهَا الْمُبْتَدِعَةُ جَمِيعًا، وَهِيَ تَرْكُهُمْ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِلَّا لَوْ تَمَسَّكُوا بِهِمَا لَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ، وَلَمَا كَانُوا أَهْلَ أَهْوَاءٍ وَبِدْعَةٍ.

فَالْبِدْعِيُّ: هُوَ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَلَمْ يَتَلَقَّ عَنْهُمَا، وَلَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ مِنْهُمَا.

www.menhaj-un.com

وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ عَامَّةِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَجَدَ أَنَّ مَنْشَأَ ضَلَالِهِمْ عَدَمُ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ إِمَّا بِالِاعْتِمَادِ عَلَىٰ الْعُقُولِ وَالْآرَاءِ، أَوِ الْمَنَامَاتِ، أَوِ الْحِكَايَاتِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَهُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ مَصْدَرًا لَهُمْ فِي الِاسْتِدْلَالِ.

«وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ»: هَذِهِ نَتِيجَةُ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاجْتِنَابِ الْبِدَعِ.

وَالْفَلَاحُ: كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ قِيلَ: لَا كَلِمَةَ فِي اللُّغَةِ أَجْمَعَ هِيَ أَجْمَعُ لِلْخَيْرَاتِ مِنْ كَلِمَةِ الْفَلَاحِ، وَالْفَلَاحُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْبِدَعِ، وَمَنْ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَذَهَبَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَصَادِرِ لَمْ يُفْلِحْ.

لِهَذَا جَاءَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا ارْتَدَىٰ أَحَدٌ بِالْكَلَامِ فَأَفْلَحَ».

وَعِنْدَمَا نَاظَرَ الشَّافِعِيُّ بِشْرًا فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَخَرَجَ بِشْرٌ، قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يُفْلِحُ».

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ كَمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

وَقَوْلُهُ: «لَعَلَّكَ...»: لَعَلَّ هَاهُنَا لَيْسَتْ لِلتَّرَجِّي؛ لِأَنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَفَلَاحُهُ مُتَحَقِّقٌ، إِلَّا إِنْ قُصِدَ فِعْلُ الْعَبْدِ بِتَحْقِيقِهِ لِهَذَا الْمَقَامِ، وَتَتْمِيمِهِ لِهَذَا الِاعْتِصَامِ.

فَنَصَحَ وَبَيَّنَ وَحَذَّرَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الَّذِي طَرَأَ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ مِنَ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ.

«فَلَا تَكُ بِدْعِيًّا...»؛ الْبِدْعِيُّ: نِسْبَةٌ إِلَىٰ الْبِدْعَةِ.

وَالْبِدْعَةُ: مَا أُحْدِثَ فِي الدِّينِ مِمَّا لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي كِتَابِ اللهِ، أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَاللهُ نَهَانَا عَنْ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ حَذَّرَنَا مِنَ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

فَالدِّينُ كَامِلٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ زِيَادَةٍ، وَلَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ نُقْصَانٌ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ حَذَّرَ -أَيْضًا- مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ**».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ**: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَحَذَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْخَوَارِجِ فَقَالَ فِيهِمْ: «**الْخَوَارِجُ هُمْ كِلَابُ النَّارِ**».

وَأَمَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بِالْبُعْدِ عَنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

الْآثَارُ عَنِ السَّلَفِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْبِدَعِ وَأَهْلِهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

«لَعَلَّكَ تُفْلِحُ»: إِذَا اعْتَصَمْتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَابْتَعَدْتَ عَنِ الْبِدَعِ وَأَهْلِهَا، فَأَبْشِرْ بِالْفَلَاحِ؛ فَإِنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَفَلَاحُهُ مُتَحَقِّقٌ.

وَالْفَلَاحُ: الظَّفَرُ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا يُفْلِحُ الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا تَمَسَّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

«**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ** -وَهِيَ النَّشَاطُ الِانْدِفَاعُ فِي الْأُمُورِ-، **وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**».

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» -كَمَا مَرَّ-.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com